



مجموعة مصطفى صادق الرافعي

# ولحى القلب

( الجزء الثالث )

موقع - أطفال الخليج ذوي الاحتياجات الخاصة

[www.gulfkids.com](http://www.gulfkids.com)

## هَذَا الْكِتَابُ

آخر كتاب أنشأه الراجعي،  
لكنه أول ما ينبغي أن يُقرأ له.. كتاب  
يجمع كل خصائص الراجعي الأدبية والعقلية  
والنفسية متميزة بوضوح في أسلوبه ومواضيعه  
فيه خلقه، وفيه شبايه ونماطه، وفيه ترجمته  
وقارنه، وفيه غضبه وسخطه، وفيه فكاهته  
ومرحه.. في مجموعة فصول ومقالات وقصص  
من وحي قلبه وقبض خاطره، فيها روعة الفن،  
وسمو الفكر، وإيجاز البيان.  
والراجعي غني عن التعريف.. إنه الأديب الحق  
أديب الأمة العربية المشامة المعتر بلسانها  
والناطق عن ذات نفسها.. ومن شاء  
أن يزيد أذ بالراجعي معرفة حقيقة..  
فليقرأ هذا الكتاب.

إلى الأمام



# من وحي قلم الرافعي

## أيها البحر ..

إذا احتدم الصيفُ، جعلتَ أنتَ أيها البحرُ للزمنِ فصلاً جديداً يُسمى " الربيعَ المائي ".  
وتنتقلُ إلى أيامك أرواحُ الحداثق، فتنبُتُ في الزمنِ بعضُ الساعاتِ الشهيةِ كأنها الثمرُ  
الخلوُ الناضجُ على شجره .

ويُوحى لونك الأزرقُ إلى النفوسِ ما كانَ يُوحيه لونُ الربيعِ الأخضرِ، إلا أنه أرق  
والأطف .

ويرى الشعراءُ في ساحلكَ مثلَ ما يرونَ في أرضِ الربيعِ، أنوثةَ ظاهرة، غيرَ أنها تلدُ  
المعاني لا النبات .

ويُحسُّ العشاقُ عندك ما يُحسونه في الربيعِ: أنَّ الهواءَ يتأوّه ...  
\*\*\*\*

في الربيعِ، يتحركُ في الدمِ البشري سرُّ هذه الأرضِ، وعندَ "الربيعِ المائي" يتحركُ  
في الدمِ سزُّ هذه السحب .

نوعانِ مِنَ الخمرِ في هواءِ الربيعِ وهواءِ البحرِ، يكونُ منهما سكر واحدٌ مِنَ الطربِ.  
وبالربيعينِ الأخضرِ والأزرقِ ينفتحُ بابانِ للعالمِ السحري العجيب: عالمِ الجمالِ  
الأرضي الذي تدخلهُ الروحُ الإنسانيةُ كما يدخلُ القلبُ المحب في شعاعِ ابتسامَةٍ  
ومعناها .

\*\*\*

في "الربيع المائي"، يجلسُ المرء، وكأنه جالسٌ في سحابةٍ لا في الأرض .  
ويشعرُ كأنه لابسٌ ثياباً من الظلِّ لا من القماش، ويجدُ الهواءَ قد تنزهَ عن أن يكونَ  
هواءَ التراب .

وتخفُّ على نفسه الأشياء، كأنَّ بعضَ المعاني الأرضية انتزعت من المادة .  
وهنا يُدركُ الحقيقة: أن السرورَ إنَّ هو إلا تنبهُ معاني الطبيعة في القلب .  
وللشمسِ هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك في "دنيا الرزق" .  
تُشرقُ الشمسُ هنا على الجسم، أما هناك فكأنما تطلعُ وتغربُ على الأعمال التي يعملُ  
الجسمُ فيها .

تطلعُ هناك على ديوانِ الموظفِ لا الموظف، وعلى حانوتِ التاجرِ لا التاجر، وعلى  
مصنَعِ العاملِ، ومدرسةِ التلميذِ، ودارِ المرأةِ .  
تطلعُ الشمسُ هناك بالنور، ولكنَّ الناسَ - وا أسفاه - يكونونَ في ساعاتهم المظلمة ...  
الشمسُ هنا جديدة، تثبتُ أنَّ الجديدَ في الطبيعة هو الجديدُ في كيفية شعورِ النفسِ به .

\*\*\*

والقمرُ زاهٍ رفافٍ من الحُسن، كأنه اغتسلَ وخرجَ من البحر .  
أو كأنه ليس قمرًا، بل هو فجرٌ طلعَ في أوائلِ الليل، فحصرته السماءُ في مكانه  
ليستمرَّ الليل .  
فجرٌ لا يُوقظُ العيونَ من أحلامها، ولكنه يُوقظُ الأرواحَ لأحلامها .  
ويُلقي من سحره على النجومِ فلا تظهرُ حوله إلا مُستبهِمةً كأنها أحلام معلقة .  
للقمرِ هنا طريقةٌ في إيهاجِ النفسِ الشاعرة، كطريقةِ الوجهِ المعشوقِ حينَ تقبلُهُ أولَ  
مرة .

\*\*\*\*

و"الربيع المائي" طيورُهُ المغزدةُ وفراشُهُ المنتقل :  
أفا الطيورُ فتنساغُ يتصاحكنَ، وأما الفراشُ فأطفالُ يتواثبون .

نساءً إذا انغمسن في البحر، خيل إليّ أن الأمواج تتشاحن و تتخاصم على بعضهن ...  
رأيتُ منهن زهراءَ فاتنةً قد جلست على الرملِ جلسةَ حواءَ قبلَ اختراعِ الثياب، فقالَ  
البحر: يا إلهي! قد أنتقلَ معنى الغرقِ إلى الشاطئِ ...  
إن الغريقَ من غرقَ في موجةِ الرملِ هذه ...

\*\*\*\*\*

والأطفالُ يلعبونَ ويصرخونَ ويضجونَ كأنما أتسعتَ لهمُ الحياةُ والدنيا .  
وخيلَ إليهم أنهم ألقوا البحرَ كما يُلقونَ الذار، فصاحَ بهم: وَيَحْكَمْ يا أسماكَ  
التراب...! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاءَ فوكزَ البحرَ برجلِهِ! فضحكَ البحرُ وقال:  
انظروا يا بني آدم !!

أعلى الله أن يغباً بالمغرورِ منكم إذا كفرَ به؟ أعلى أن أعبأ بهذا الطفلِ  
كيلا يقولَ إنه ركني برجلِهِ...؟  
أيها البحر، قد ملأتك قوةُ الله لتثبتَ فراغَ الأرضِ لأهلِ الأرضِ .  
ليسَ فيك ممالكٌ ولا حدود، وليسَ عليك سلطانَ لهذا الإنسانِ المغرورِ .  
وتجيشُ بالناسِ وبالسفنِ العظيمة، كأنكَ تحملُ من هؤلاءِ وهؤلاءِ قشا ترمي به.  
والاختراعُ الإنسانيُّ مهما عظمَ لا يُقني الإنسانَ فيك عن إيمانه .  
وأنت تملأُ ثلاثةَ أرباعِ الأرضِ بالعظمةِ والهولِ، ردا على عظمةِ الإنسانِ وهولِهِ في  
الربعِ الباقي، ما أعظمَ الإنسانَ وأصغره !

\*\*\*

ينزل في الناسِ ماؤك فيتساوون حتى لا يختلفَ ظاهرَ عن ظاهرِ .  
ويركبونَ ظهرَكَ في السفنِ فيحنُ بعضهم إلى بعضِ حتى لا يختلفَ باطنَ عن باطنِ.  
تُشعرُهُم جميعاً أنهم خرجوا من الكرةِ الأرضيةِ ومن أحكامِها الباطلةِ .  
وتفقرُهُم إلى الحبِ والصدقةِ فقراً يُريهمُ النجومَ نفسهاً كأنها أصدقاء، إذ عرفوها في  
الأرضِ .

يا سحرَ الخوف، أنت أنت في اللجّة كما أنت أنت في جهنم .

\*\*\*

وإذا ركبتك المُلحدُ أيها البحر، فرجقتَ من تحته، وهذرتَ عليه وثرتَ به، وأريته رأيَ العين كأنه بين سماءينِ ستنتطبقُ إحداهما على الأخرى فتُقفلانِ عليه - تركته يتطأطأً ويتواضع، كائك تهزّه وتهز أفكاره معاً، وتُدحرجُهُ وتُدحرجُها. وأطرتَ كل ما في عقله فيلجأُ إلى الله بعقلِ طفل .  
وكشفتَ له عن الحقيقة: أن نسيانَ الله ليسَ عملَ العقل، ولكنه عملُ الغفلةِ والأمنِ وطولِ السلامة .

\*\*\*

ألا ما أشبهَ الإنسانَ في الحياةِ بالسفينةِ في أمواجِ هذا البحر !  
إن ارتفعتِ السفينةُ، أو انخفضت، أو مادتْ ، فليسَ ذلكَ منها وحدها، بل مما حولها .  
ولن تستطيعَ هذه السفينةُ أن تملكَ من قانونِ ما حولها شيئاً، ولكنَّ قانونها هو الثباتُ، والتوازنُ، والاهتداءُ إلى قصدِها، ونجاتُها في قانونها .  
فلا يعتبِنَ الإنسانُ على الدنيا وأحكامِها، ولكق فليجتهد أن يحكمَ نفسه.

## في الربيع الأزرق

ما أجمل الأرضَ على حاشيةِ الأزرقينِ البحرِ والسماءِ، يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسه  
مرسوماً في صورةِ إلهيةٍ .

\*\*\*

نظرتُ إلى هذا البحرِ العظيمِ بعينيِ طفلٍ يتخيَّلُ أن البحرَ قد ملىءَ بالأمسِ، وأن  
السماءَ كانتا إناءً له، فاتكفاً الإناءُ فأندفقَ البحرُ، وتسرَّحتُ مع هذا الخيالِ الطفلي  
الصغيرِ فكأنما نالني رشاشٌ من الإناءِ ....  
إننا لن ندركَ روعةَ الجمالِ في الطبيعةِ إلا إذا كانتِ النفسُ قريبةً من طفولتِها، ومرحِ  
الطفولةِ، ولعبِها، وهذيانِها .  
تبدو لك السماءُ على البحرِ أعظمَ مما هي، كما لو كنتَ تنتظرُ إليها من سماءٍ أخرى لا  
من الأرضِ .

\*\*\*

إذا أنا سافرتُ فجيئتُ إلى البحرِ، أو نزلتُ بالصحراءِ، أو حللتُ بالجبلِ، شعرتُ أولَ  
وهلةٍ من دهشةِ السرورِ بما كنتُ أشعرُ بمثلهِ لو أن الجبلَ أو الصحراءَ أو البحرَ قد  
سافرتُ هي وجاءتْ إلي .  
في جمالِ النفسِ يكونُ كلُّ شيءٍ جميلاً، إذ تلقي النفسُ عليه من ألوانِها، فتنقلبُ الدارُ  
الصغيرةُ قصراً لأثنا في سعةِ النفسِ لا في مساحتِها هي، وتعرفُ لنورِ النهارِ عذوبةَ  
كعذوبةِ الماءِ على الظمأِ، ويظهرُ الليلُ كأنه معرضُ جواهرٍ أقيمَ للهورِ العينِ في  
السمواتِ، ويبدو الفجرُ بألوانِهِ وأنوارِهِ ونسماتِهِ كأنه جنةٌ سابحةٌ في الهواءِ .

في جمالِ النفسِ ترى الجمالَ ضرورةً من ضروراتِ الخليقة، وَيَ كَأَنَّ اللهَ أَمَرَ العَالَمَ  
أَلَّا يَعْبَسَ للقلبِ المبتسمِ .

\*\*\*

أَيَّامُ المصيفِ هي الأَيَّامُ التي ينطلقُ فيها الإنسانُ الطَّبِيعِيُّ المَحْبُوسُ في الإنسانِ، فيرتدُّ  
إلى دهرِهِ الأَوَّلِ، دهرِ الغاباتِ والبحارِ والجبالِ .  
إن لم تُكُنْ أَيَّامُ المصيفِ بمثلِ هذا المعنى، لم يَكُنْ فيها معنى .

\*\*\*

لَيْسَتْ اللَّذَّةُ في الرَّاحَةِ ولا الفِراغِ، ولكنها في التَّعبِ والكَدِّحِ والمَشَقَّةِ حينَ تتحولُ أَيَّاماً  
إلى راحةٍ وفِراغِ .

\*\*\*

لا تتمُّ فائدةُ الأنتقالِ من بلدٍ إلى بلدٍ إلا إذا انتقلتِ النفسُ من شعورٍ إلى شعورٍ، فإذا  
سافرَ معكَ الهَمُّ فأنت مقيمٌ لم تَبْرَحِ .

\*\*\*

الحياةُ في المصيفِ تُثَبِّتُ للإنسانِ أنها إنما تكونُ حيثُ لا يُحْفَلُ بها كثيراً .

\*\*\*

يشعرُ المرءُ في المَدُنِ أنه بينَ آثارِ الإنسانِ وأعمالِهِ، فهو في رُوحِ العناءِ والكَدِّحِ  
والنزاعِ، أما في الطَّبِيعَةِ فيُحِسُّ أنه بينَ الجمالِ والعجائبِ الإلهيةِ، فهو هنا في رُوحِ  
اللذةِ والسرورِ والجلالِ .



\*\*\*

إذا كنتَ في أيام الطبيعة فَاجعل فِكركَ خالياً وفرَّغهُ للنبتِ والشجرِ، والحجرِ والمدَرِ،  
والطيرِ والحيوانِ، والزهرِ والعُشبِ، والماءِ والسَّماءِ، ونورِ النهارِ، وظلامِ الليلِ،  
حينئذٍ يَفْتَحُ العالَمُ بابَهُ ويقول: ادخل ...

\*\*\*

لُطفُ الجمالِ صورةٌ أخرى من عَظَمَةِ الجمالِ، عرفتُ ذلكَ حينما أبصرتُ قطرةً من  
الماءِ تلمعُ في غصنِ، فخيّلَ إليّ أن لها عَظَمَةَ البحرِ لو صَغُرَ فَعُلِقَ على ورقة .

\*\*\*

في لحظةٍ منَ لحظاتِ الجسدِ الروحانيةِ حينَ يفورُ شعْرُ الجمالِ في الدمِ، أطفَتُ النظرَ  
إلى وردةٍ في غُصنِها زاهيةٍ عَطرَةَ، متأنقة، متأتتة، فكذتُ أقولُ لها: أنتِ أيتها المرأة،  
أنتِ يا فلانة ....

\*\*\*

أليسَ عجبياً أن كل إنسانٍ يرى في الأرضِ بعضَ الأمكنةِ كأنها أمكنةٌ للروحِ خاصة،  
فهل يدل هذا على شيءٍ إلا أن خيالَ الجنةِ منذُ آدمَ وحواءَ، لا يزالُ يعملُ في النفسِ  
الإنسانية؟

\*\*\*

الحياة في المدينةِ كَشْرَبِ الماءِ في كُوبِ مِنَ الخَزَفِ، والحياةُ في الطبيعةِ كَشْرَبِ الماءِ  
في كُوبِ مِنَ البَلُورِ الساطعِ، ذاكَ يحتوي الماءَ وهذا يحتويه ويُبدي جماله للعينِ .

\*\*\*

وا أسفاه، هذه هي الحقيقة: إن دقة الفهم للحياة تُفسدُها على صاحبها كدقة الفهم للحب،  
وإن العقل الصغير في فهمه للحسب والحياة، هو العقل الكامل في التذاذب بهما. وا  
أسفاه، هذه هي الحقيقة !

\*\*\*

في هذه الأيام الطبيعية التي يجعلها المصيف أيام سرور ونسيان، يشعر كل إنسان أنه  
يستطيع أن يقول للعالم كلمة هزل ودعابة ....

\*\*\*

من لم يُرزق الفكر العاشق لم يرَ أشياء الطبيعة إلا في أسمائها وشيئاتها، دون حقائقها  
ومعانيها، كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلهن سواء، فإذا عشق رأى فيهن نساءً  
غير من عرف، وأصبح عنده أدلة على صفات الجمال الذي في قلبه .

\*\*\*

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجه الحياة، أما دنيا المصيف فقائمة بما تلذّه الحياة، وهذا هو  
الذي يغير الطبيعة ويجعل الجو نفسه هناك جو مائدة ظرفاء وظريفات ....

\*\*\*

تعمل أيام المصيف بعد انقضائها عملاً كبيراً، هو إدخال بعض الشعر في حقائق  
الحياة .

هذه السماء فوقنا في كل مكان، غير أن العجيب أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف  
ليزوا أشياء منها السماء ..

\*\*\*

إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد وتتسع، وحقائق الهموم  
تصغر وتضيق، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيق لا هي .

\*\*\*

في الساعة التاسعة أذهب إلى عملي، وفي العاشرة أعمل كيت، وفي الحادية عشرة  
أعمل كيت وكيت، وهنا في المصيف تفقد التاسعة وأخواتها معانيها الزمينة التي كانت  
تضعها الأيام فيها، وتستبدل منها المعاني التي تضعها فيها النفس الحرة. هذه هي  
الطريقة التي تُصنع بها السعادة أحياناً، وهي طريقة لا يقدر عليها أحد في الدنيا  
كصغار الأطفال .

\*\*\*

إذا تلاقى الناس في مكان على حالة متشابهة من السرور وتوهمه والفكرة فيه، وكان  
هذا المكان معداً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهها- فتلك هي الرواية وممثلوها  
ومسرحها، أما الموضوع فالسخرية من إنسان المدنية ومدنية الإنسان .

\*\*\*

ما أصدق ما قالوه: إن المرئي في الرائي. مرضت مدة في المصيف، فانقلبت الطبيعة  
العروس التي كانت تنزين كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كل يوم إلى الطبيب

## الطفولتان ...

(عصمت) ابنُ فلان باشا طفلٌ مُتَرَفٌ يَكادُ ينعصرُ لِيناً، وتراه يَرِفُ رَفِيفاً مما نشأ في ظلالِ العز، كأن لروحِهِ مِنَ الرِّقَةِ مثلَ ظلِ الشجرةِ حولِ الشجرةِ. وهو بينِ لِداتِهِ (أصدقائه) مِنَ الصَّبِيانِ كالشوكَةِ الخضراءِ في أُمُودِها (غصنها) (الريان) (الطري)، لها منظرُ الشوكَةِ، على مَجسَةٍ لينةِ ناعمةِ تَكذِّبُ أنها شوكَةٌ إِلاَّ أَنْ تَبسُ وتَنَوِّحَ. وأبوهُ "فلان" مديرٌ لمديريةِ كذا، إِذا سئِلَ عنه ابنُهُ قال: إنه مديرٌ المديريةِ. لا يَكادُ يعدو هذا التركيبُ، كأنه من غُرورِ النعمةِ يَأبى إِلاَّ أَنْ يجعلَ أَباهُ مديراً مرتينِ ... وكثيراً ما تكونُ النعمةُ بذيئةً وَقاحاً سَيئةً الأَدبِ في أولادِ الأَغنياءِ، وكثيراً ما يكونُ الغنى في أَهلِهِ غنىً مِنَ السيئاتِ لا غير!

(وفي رأي) (عصمت) أَنْ أَباهُ من عُلُوِّ المنزلةِ كأنه على جَنَاحِ النسرِ الطائرِ في مَسبَحِهِ إِلى النجمِ، أما آباءُ الأَطفالِ مِنَ الناسِ فهمَ عندهُ من سُقُوطِ المنزلةِ على أَجنحةِ الذبابِ والبَعوضِ!

ولا يَعدو ابنُ المديرِ إِلى مدرستِهِ ولا يَتَرَوِّحُ منها إِلاَّ وراءَهُ جُنْدِيٌّ يمشي على أَثرِهِ في الغدوةِ والروحةِ إِذْ كانَ ابنُ المديرِ، أَي ابنُ القوَّةِ الحاكمةِ، فيكونُ هذا الجنديُّ وراءَ الطفلِ كالمَنبَهَةِ له عندَ الناسِ، تُفصِحُ شارَتُهُ العسكريةُ بلغاتِ السابِلَةِ (المارةِ) جَمعاً أَنْ هذا هو ابنُ المديرِ. فإِذا رآه العربيُّ أو اليونانيُّ، أو الطليانيُّ أو الفرنسيُّ، أو الإنجليزيُّ أو كائنٌ مَن كانَ من أَهلِ الألسنةِ المتنافرةِ التي لا يَفْهَمُ لسانَ منها عن لسانٍ - فهموا جميعاً من لغةِ هذهِ الشارةِ أَنَّ هذا هو ابنُ المديرِ، وانهُ مِنَ الجنديِ الذي يَتَبَعُهُ كالمادةِ مِنَ القانونِ وراءَها الشرحُ! ...

ولقد كانَ يجبُ لابنِ المديرِ هذا الشرفُ الصببانيُّ. لو أَنه يومٌ وُلِدَ لم يولدَ ابنُ ساعتِهِ كأطفالِ الناسِ، بل وُلِدَ ابنٌ عَشْرِ سنينِ كاملةٍ لتشهدَ له الطبيعةُ أَنه كبيرٌ قد آصَدَعَت (جاءت) به مُعجزةً! وإِلاَّ فكيف يمشي الجنديُّ من جنودِ الدولةِ وراءَ طفلٍ ويخدمُهُ وَيَنصاغُ لأمرِهِ (يطيعه)، وهذا الجنديُّ لو كانَ طَريدَ هزيمةٍ قد فرَّ في معركةٍ من

معارك الوطن، وأريد تخليده في هزيمته وتخليدها عليه بالتصوير - لما صورَ إلا جندياً في شارته العسكرية منقاداً لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم، في صورة يُكتب تحتها: "نفاية عسكرية."!

\*\*\*

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه في مصر إلا تأويل واحد: هو أن مكان الشخصيات فوق المعاني، وإن صغرت تلك وجلت هذه، ومن هنا يكذب الرجل ذو المنصب، فيرفع شخصه فوق الفضائل كلها، فيكبر عن أن يكذب فيكون كذبه هو الصدق، فلا ينكر عليه كذبه أي صدقه...! ويخرج من ذلك أن يتقرر في الأمة أن كذب القوة صدق بالقوة!

وعلى هذه القاعدة يُقاس غيرها من كل ما يُخذل فيه الحق. ومتى كانت الشخصيات فوق المعاني السامية طفت (بدأت) هذه المعاني تموج موجهها محاولة أن تغلو، مكرهة على أن تنزل، فلا تستقيم على جهة ولا تنتظم على طريقة، وتقبل بالشيء على موضعه، ثم تكرر كرها فتدبر به إلى غير موضعه، فتضل كل طبقة من الأمة بكبرائها، ولا تكون الأمة على هذه الحالة في كل طبقاتها إلا صغاراً فوقهم كبارهم، وتلك هي تهيئة الأمة للاستعباد متى أبتليت بالذي هو أكبر من كبارها، ومن تلك تنشأ في الأمة طبيعة النفاق يحتمي به الصغر من الكبر، وتنتظم به ألفة الحياة بين الذلة والصولة (الغلبة و القهر!)

\*\*\*

وتخلف الجندي ذات يوم عن موعد الرواح من المدرسة، فخرج (عصمت) فلم يجده، فبدا له أن يتسكع (يتجول على غير هدى) في بعض طرق المدينة لينطلق فيه ابن آدم لا ابن المدير، وحن حنينه إلى المغامرة في الطبيعة، ولبست الطرق في خياله الصغير زينتها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويتهوئون ويتعابثون ويتشاحنون (يتشاجرون)، وهم شتى وكأنهم أبناء بيت واحد مست بكل من كل رحم، إذ لا ينتسبون في اللهو إلا إلى الطفولة وحدها.

وانساقَ (عصمت) وراءَ خياله، وهرَبَ على وجهه من تلك الصورة التي يمشي فيها الجندي وراء ابن المدير، وتغلَّغَ في الأزقة (توغل) لا يُبالي ما يعرفه منها وما لا يعرفه، إذ كان يسيرُ في طرقٍ جديدةٍ على عينه كأنما يحلمُ بها في مدينةٍ من مدن النوم.

وأنتهى إلى كَبْكَبَةٍ (جماعة) من الأطفالِ قد استجمعوا لشأنهم الصبباني، فانتبذَ (انزوى) ناحيةً ووقفَ يُصغي إليهم متهيِّباً أن يُقدِمَ، فاتَّصلَ بسمعه ونظره كالجبان، وتسمَّعَ فإذا خبيثٌ منهم يعلمُ الآخرَ كيف يضربُ إذا اعتدى أو اعتدي عليه، فيقول له: اضربْ أينما ضربت، من رأسه، من وجهه، من الخُقوم، من مَرَّاقِ البطن، قال الآخرُ: وإذا مات؟ فقال الخبيث: فإذا مات فلا تقلُ إني أنا علمتُك!...

وسمعَ طفلاً يقول لصاحبه: أما قلتُ لك: إنه تعلمُ السرقةَ من رؤيته اللصوصَ في السيماء؟ فأجابهُ صاحبه: وهل قال له أولئك اللصوصُ الذين في السيماء كن لصاً واعمل مثلاً؟

وقام منهم شيطان فقال: يا أولادَ البلد، أنا المدير! تعالوا وقولوا لي: يا سعادةَ الباشا، إن أولادنا يريدون الذهابَ إلى المدارس، ولكننا لا نستطيعُ أن ندفعَ لهم المصروفات.. " فقال الأولادُ في صوب واحد: "يا سعادةَ الباشا، إن أولادنا يريدون الذهابَ إلى المدارس، ولكننا لا نستطيعُ أن ندفعَ لهم المصروفات " فرد عليهم (سعادته): اشترُوا لأولادكم أحذيةً وطرايشَ وثياباً نظيفةً، وأنا أدفعُ لهم المصروفات.

فنظرَ إليه خبيثٌ منهم وقال: يا سعادةَ المدير، وأنت فلماذا لم يشتري لك أبوك حذاءً؟ وقال طفلٌ صغير: أنا ابنُك يا سعادةَ المدير، فأرسلني إلى المدرسةِ وقتَ الظهرِ

فقط!...

\*\*\*

وكان (عصمت) يسمعُ ونفسه تعتز بإحساسها، كالورقةِ الخضراءِ عليها ظلُّ الندى، وأخذَ قلبه يفتتح في شعاعِ الكلامِ كالزهرةِ في الشمس، وسكرَ بما يسكرُ به الأطفالُ حين تُقدِّمُ لهم الطبيعةُ مكانَ اللهوِ مُعداً مهياً، كالحانةِ ليسَ فيها إلا أسبابُ السكرِ

والنشوة، وتمام لذتها أن الزمن فيها منسي، وأن العقل فيها مهمل...

وأحس ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيبتهم وسجيبتها - إنما هي المدرسة التي لا جدران لها، وهي تربية الوجود للطفل تربية تتناولهُ من أدق أعصابه فتبدد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت، وتفرغهُ منها ثم تملؤه بما هو أتم وأزيد وبذلك تكسبه نمو نشاطه، وتعلمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط، فتهديه إلى أن يُبدع بنفسه ولا ينتظر من يُبدع له، وتجعل خطاه دائماً وراء أشياء جديدة، فتسده من هذا كله إلى سر الإبداع والابتكار، وتلقيه العلم الأعظم في هذه الحياة، علم نضرة نفسه وسرورها ومرحها، وتطبعه على المزاج المتطلق المتهلل المتفائل، وتتدفق به على دنياه كالفيضان في النهر، تفور الحياة فيه وتفور به، لا كأطفال المدارس الخامدين، تعرف للواحد منهم شكل الطفل وليس له وجوده ولا عالمه، فيكون المسكين في الحياة ولا يجدها، ثم تراه طفلاً صغيراً، وقد جمعوا له هموم رجل كامل!

ودبت روح الأرض دبيبها في ( عصمت )، وأوحت إلى قلبه بأسرارها، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأعمار ( الجاهلين الأغرار ) الأغبياء من أولاد الفقراء والمساكين، هم السعداء بطفولتهم، وأنه هو وأمثاله هم الفقراء والمساكين في الطفولة، وأن ذلك الجندي الذي يمشي وراءه لتعظيمه إنما هو سجن، وأن الألعاب خير من العلوم، إذ كانت هي طفلية الطفل في وقتها، أما العلوم فرجولة ملزقة به قبل وقتها توقره وتحولهُ عن طباعه، فنقتل فيه الطفولة وتهدم أساس الرجولة، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه، ويكون في الأول طفلاً رجلاً، ثم يكون في الآخر رجلاً طفلاً. وأحس مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هي بيته الواسع الذي لا يتخرج أن يصرخ فيه صراخه الطبيعي، ويتحرك حركته الطبيعية، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبة، ولا حاملو العصي من الضباط، بل حق البيت الواسع أن تكون فيه الأبوة الواسعة، والأخوة التي تتفسح للمئات، فيمرُّ الطفل المتعلم في نشأته من منزل إلى منزل إلى منزل، على تدريج في التوسع شيئاً فشيئاً، من البيت، إلى

المدرسة، إلى العالم.

\*\*\*

وكان (عصمت) يحلمُ بهذه الأحلام الفلسفية، وطفولته تشب وتسترجل، ورخاوته تشتد وتتماسك، وكانت حركات الأطفال كأنها تحركه من داخله، فهو منهم كالطفل في السیما حين يشهد المتلاكمين والمتصارعين، يستطيره الفرخ، ويتوثب فيه الطفل الطبيعي بمرحه وحنوانه، وتتقلص عضلاته، ويتكشف جلده، وتجتمع قوته، حتى كأنه سيُظاهر أحد الخصمين ويلكم الآخر فيكوره ويصرعه، ويفض معركة الضرب الحديدي بضربته اللينة الحريرية!..

فما لبث صاحبنا الغرير الناعم أن تخشن، وما كذب أن اقتحم، وكأنما أقبل على روحه الشارغ والأطفال ولهوهم وعبثهم، إقبال الجوّ على الطير الحبيس المعلق في مسمار إذا انفرج عنه القفص، وإقبال الغابة على الوحش القنيص إذا وثب وثبة الحياة فطار بها، وإقبال الفلاة على الظبي الأسير إذا ناوص (رفع رأسه و تحرك للجري) فأقلت من الحيلة.

وتقدم فادغم (انضم) في الجماعة وقال لهم: أنا ابن المدير. فنظروا إليه جميعاً، ثم نظر بعضهم إلى بعض، وسفرت (بدت) أفكارهم الصغيرة بين أعينهم، وقال منهم قائل: إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير.

فقال آخر: ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير....

فقال الثالث: ليست كأمك يابعططي ولا كأم جُعلص!

قال الرابع: يا ويلك لو سمع جُعلص، فإن لکماته حينئذ لا تترك أمك تعرف وجهك من

القفا!

قال الخامس: ومن جُعلص هذا؟ فليات لأريكم كيف أصارعه، فأجتذبه فأعصره بين يدي، فأعتقل رجله برجلي، فأدفعه، فيتخاذل، فأعركه، فيخر على وجهه، فأسمره في

الأرض بمسار!

فقال السادس: هاها! إنك تصف بأدق الوصف ما يفعله جُعلص لو تناولك في يده!...



فصاح السابع: ويلكم! هاهو ذا. جُعِص، جُعِص، جُعِص!

فتطأير الباقون يميناً وشمالاً كالورق الجاف تحت الشجر ضربته الريح العاصف.  
وقهقه الصبي من ورائهم، فثابوا إلى أنفسهم وتراجعوا. وقال المستطيل منهم: أما إني  
كنت أريد أن يعدو جعص ورائي، فأستطرِدُ إليه قليلاً أطمعه في نفسي، ثم أرتدُّ عليه  
فأخذه كما فعل "ماشيست الجبار" في ذلك المنظر الذي شاهدناه.

وقهقه الصبيان جميعاً...! ثم أحاطوا (بعصمت) إحاطة العشاق بمعشوقة جميلة،  
يحاول كلُّ منهم أن يكون المقرب المخصوص بالخطوة، لا من أجل أنه ابن المدير  
فحسب، ولكن من أجل ان ابن المدير تكون معه القروش... فلو وجدت القروش مع  
ابن زبال لما منعه نسبه أن يكون أمير الساعة بينهم إلى أن تنفد قروش فيعود ابن  
زبال!...

وتنافسوا في (عصمت) وملاعبته والاختصاص به، فلو جاء المدير نفسه يلعب مع  
آبائهم ويركبهم ويركبونه، وهم بين نجارٍ وحداد، وبناءٍ وحمال، وحوذي وطباخ،  
وأمثالهم من نوي المهنة المكسبة الضئيلة- لكانت مطامع هؤلاء الأطفال في ابن  
المدير، أكبر من مطامع الآباء في المدير.

وجرت المنافسة بينهم مجراها، فانقلبت إلى ملاحاة (جدال)، ورجعت هذه الملاحاة  
إلى مشاحنة، وعاد ابن المدير هدفاً للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه، إذ لا  
يقصد أحد منهم أحداً بالغيظ إلا تعد غيظ حبيبه، ليكون أنكأ له وأشد عليه!  
وتظاهروا بعضهم على بعض، ونشأت بينهم الطوائل، وأفسدهم هذا الغنى المتمثل  
بينهم. وياما أعجب إدراك الطفولة وإلهامها! فقد اجتمعت نفوسهم على رأي واحد،  
فتحولوا جميعاً إلى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير، فخاطره أحدهم في اللعب فقمره  
(خسره في المقامرة)، فأبى إلا أن يعلو ظهره ويركبه، وأبى عليه ابن المدير ودافعه،  
يرى ذلك تلماً في شرفه ونسبه وسطوة أبيه، فلم يكذ يعنل بهذه العلة ويذكر أباه  
ليعرفهم آباءهم... هاجت حتى كبرياؤهم، وثارَت دفائنهم، ورقصت شياطين  
رؤوسهم، وبذلك وضع الغبيُّ حقدَ الفقرِ بإزاء سُخريةِ الغنى، فألقى بينهم مسألة

المسائل الكبرى في هذا العالم، وطرحها للحل!...

وتنفسوا (تهيئوا للمبارزة) للصولة عليه، فسخر منه أحدهم، ثم هزأ به الآخر، وأخرج الثالث لسانه، وصدمه الرابع بمنكبه، وأفحش عليه الخامس، ولكزه السادس، وحثا السابع في وجهه التراب!

وجهد المسكين أن يفر من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جدران فبطل إقدامه وإحجامه، ووقف بينهم ما كتب الله... ثم أخذته أيديهم فانجدل على الأرض، فتجاذبوه يمرغونه في التراب!

وهم كذلك إذ انقلب كبيرهم على وجهه، وأنكفأ الذي يليه، وأزيح الثالث، ولطم الرابع، فنظروا فصاحوا جميعاً: "جُعِصْ، جُعِصْ، جُعِصْ!!" وتواتبوا يشندون هرباً. وقام (عصمت) ينتخل التراب من ثيابه وهو يبكي بدمعه، وثيابه تبكي بترابها...! ووقف ينظر هذا الذي كشفهم عنه وشردتهم صولته، فإذا جُعِصْ وعليه رجفان من الغضب، وقد تبرطمت شفته، وتقلص وجهه، كما يكون "ماشيست" في معاركه حين يدفع عن الضعفاء.

وهو طفل في العاشرة من لدات (عصمت)، غير أنه مُحْتَتَكٌ في سن رجل صغير، غليظ عبل شديد الجيلة متراكب بعضه على بعض (مفتول العضلات مكتنز اللحم)، كأنه جني متقاصر يهيم أن يطول منه المارد، فأنس به (عصمت)، واطمأن إلى قوته، وأقبل يشكو له ويبكي!

قال جعص: ما اسمك؟

قال: أنا ابن المدير!...

قال جعص: لا تبك يا ابن المدير. تعلم أن تكون جلدًا (قويا صبورا)، فإن الضرب ليس بذل ولا عار، ولكن الدموع هي تجعله ذلاً وعاراً، إن الدموع لتجعل الرجل أنثى. نحن يا ابن المدير نعيش طول حياتنا إما في ضرب الفقر أو ضرب الناس، هذا من هذا، ولكنك غني يا ابن المدير، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخم مُنتَفَخٌ، ولكنه ينكسر بلمسة، وحشوه مثل القطن!

ماذا تتعلم في المدرسة يا ابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً يأكل من يريد أكله، وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر، وكيف تصبر للخير يوم الخير، فتكون دائماً على الحاليتين في خير؟

قال عصمت: آه لو كان معي العسكري!

قال: جعلس: وبحك؟ لو ضربوا عنزاً لما قالت: آه لو كان معي العسكري!

قال عصمت: فمن أين لك هذه القوة؟

قال جعلس: من أنني أعتمل بيدي (أخدم نفسي بنفسي) فأنا أشتدّ وإذا جعت أكلت طعامي، أما

أنت فتسترخي، فإذا جعت أكلك طعامك، ثم من أنني ليس لي عسكري!..

قال عصمت: بل القوة من أنك لست مثلنا في المدرسة؟

قال جعلس: نعم، فأنت يا ابن المدرسة كأنك طفل من ورقٍ وكراساتٍ لا من لحم، وكأن عظامك من طباشير! أنت يا ابن المدرسة هو أنت الذي سيكون بعدَ عشرين سنةً، ولا يعلم إلا الله كيف يكون، وأما أنا ابن الحياة، فأنا من الآن، وعلي أن أكون "أنا" من الآن!

أنت...

\*\*\*

وهنا أدركهما العسكري المسخر لابن المدير، وكان كالمجنون يطير على وجهه في الطرق يبحث عن (عصمت)، لا حُباً فيه، ولكن خوفاً من أبيه، فما كاد يرى هذا العفر على أثوابه حتى رنت صفعته على وجه المسكين جعلس.

فصعّر هذا خده (مال بخده تكبراً)، ورشق عصمت بنظره، وانطلق يعدو عدو الظالم

(ذكر النعام!)

يا للعدالة! كانت الصفعة على وجه ابن الفقير، وكان الباكي منها ابن الغني!..

\*\*\*

وأنتم أنتم الفقراء، حسبكم البطولة، فليس غنى بطل الحرب في المال والنعيم، ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه.

## اليامتان ..

جاء في تاريخ الواقدي "أن (المقوقس) عظيم القبط في مصر، زوج بنته (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هرقل) وجعلها بأموالها حشماً لتسير إليه، حتى يبني عليها في مدينة قيسارية بفلسطين؛ فخرجت إلى بلبيس (مدينة بمحافظة الشرقية) وأقامت بها... وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً، وقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس، وانهزم من بقي إلى المقوقس، وأخذت أرمانوسة وجميع مالها، وأخذ كل ما للقبط في بلبيس. فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته مكزماً في جميع مالها، (مع قيس بن أبي العاص السهمي)؛ فسُرَّ بقدمها ...

\*\*\*

هذا ما أثبتته الواقدي في روايته، ولم يكن معنياً إلا بأخبار المغزى والفتوح، فكان يقتصر عليها في الرواية؛ أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن :

كانت لأرمانوسة وصيفة مولدة تسمى (مارية)، ذات جمال يوناني أتمته مصرُ ومسحته بسحرها، فزاد جمالها على أن يكون مصرياً، ونقص الجمال اليوناني أن يكونه؛ فهو أجمل منهما، ولمصر طبيعة خاصة في الحسن؛ فهي قد تهمل شيئاً في جمال نسائها أو تشعث منه، وقد لا توفيه جهد محاسنها الرائعة؛ ولكن متى نشأ فيها جمال ينزغ إلى أصل أجنبي أفرغت فيه سحرها إفراغاً، وأبت إلا أن تكون الغالبة

عليه، وجعلته آيتها في المقابلة بينه في طابعه المصري، وبين أصله في طبيعة أرضه كائنة ما كانت; تغار على سحرها أن يكون إلا الأعلى .

وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل، اتخذها المقوقس كنييسة حية لابنته، وهو كان والياً وبطريركاً على مصر من قبل هرقل; وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الإسلامي جاء في عهده، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القفل القبطي، فلم تكن أبوابهم تدفع إلا بمقدار ما تدفع، تقاتل شيئاً من قتال غير كبير، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لا تدع إلا للتحطيم، ووراءها نحو مائة ألف رومي يقاتلون المعجزة الإسلامية التي جاءتهم من بلاد العرب أول ما جاءت في أربعة آلاف رجل، ثم لم يزيدوا آخر ما زادوا على اثني عشر ألفاً. كان الروم مائة ألف مقاتل بأسلحتهم- ولم تكن المدافع معروفة- ولكن روح الإسلام جعلت الجيش العربي كأنه اثنا عشر ألف مدفع بقنابلها، لا يقاتلون بقوة الإنسان، بل بقوة الروح الدينية التي جعلها الإسلام مادة منفجرة تشبه الديناميت قبل أن يُعرف الديناميت !

ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس جزعت مارية جزعاً شديداً; إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قوم جياح ينفضهم الجذب على البلاد نفض الرمال على الأعين في الريح العاصف; وأنهم جراد إنساني لا يغزو إلا لبطنه; وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التي يمتطونها; وأن النساء عندهم كالدواب يرتبطن على خسف; وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء، ثقلت مطامعهم وخفت أمانتهم; وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزاراً في الجاهلية، فما تدعه روح الجزائر ولا طبيعته; وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشذاذهم، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش !

وتوهمت مارية أوهاماً، وكانت شاعرة قد درست هي وأرمانوسة أدب يونان وفلسفتهم، وكان لها خيال مشبوب متوقد يشعرها كل عاطفة أكبر مما هي، ويضاعف الأشياء في نفسها، وينزع إلى طبيعته الموثثة، فيبالغ في تهويل الحزن خاصة، ويجعل من بعض الألفاظ وقوداً على الدم ...

ومن ذلك استطير قلب مارية وأفزعتها الوساس، فجعلت تندب نفسها، وصنعت في

ذلك شعراً هذه ترجمته :

جاءك أربعة آلاف جزار أيتها الشاة المسكينة !

ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحي !

جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة !

ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت !

قوّني يا إلهي، لأغمد في صدري سكيناً يردّ عني الجزارين !

يا إلهي، قوّ هذه العذراء، لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربي !..

\*\*\*

وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة في صوت حزين يتوجّع؛ فضحكت هذه وقالت:  
أنت واهمة يا مارية؛ أنسيت أن أبي قد أهدى إلى نبيهم بنت (أنصنا) - مارية القبطية  
و كانت من "أنصنا" بالوجه القبلي-، فكانت عنده في مملكة بعضها السماء وبعضها  
القلب؛ لقد أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبي؛  
وأنها أنفذت إليه دسيساً يُعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في  
العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نبيهم أظهر من السحابة في سمائها، وأنهم  
جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله، لا من حدود أنفسهم وشهواتها؛ وإذا سلوا  
السيف سلوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون. وقالت عن النساء: لأن تخاف المرأة  
على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبي؛ فإنهم جميعاً في  
واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضمير الإسلامي في الرجل منهم- يكون  
حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه إذا هم بمخالفته .

وقال أبي: إنهم لا يُغيرون على الأمم، ولا يحاربونها حرب الملك؛ وإنما تلك طبيعة  
الحركة للشريعة الجديدة، تتقدم في الدنيا حاملة السلاح والأخلاق، قوية في ظاهرها  
وباطنها، فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم؛ وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق !  
وقال أبي: إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه في العالم اندفاع العصاراة الحية في الشجرة  
الجرداء؛ طبيعة تعمل في طبيعة؛ فليس يمضي غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمي

ظلالها; وهو بذلك فوق السياسات التي تُشبهه في عملها الظاهر المُفَقِّ ما يُعدُّ كطلاء  
الشجرة الميتة الجرداء بلون أخضر... شتآن بين عمل وعمل، وإن كان لون يشبه  
لونا ...

فاستروحتْ ماريةً واطمأنت باطمئنان أرمانوسة، وقالت: فلا ضيرَ علينا إذا فتحوا  
البلد، ولا يكون ما نستضرُّ به؟

قالت أرمانوسة: لا ضيرَ يا مارية، ولا يكون إلا ما نحب لأنفسنا; فالمسلمون ليسوا  
كهولاء العُلوج من الروم، يفهمون متاعَ الدنيا بفكرة الحرص عليه، والحاجة إلى  
حلاله وحرامه، فهم القُساءُ الغِلاظُ المُستكلبون كالبهائم; ولكنهم يفهمون متاعَ الدنيا  
بفكرة الاستغناء عنه والتمييز بين حلاله وحرامه، فهم الإنسانيون الرُحماء المتعطفون .  
قالت مارية: وأبيك يا أرمانوسة، إن هذا لعجيب! فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو  
وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدّبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب  
التي كتبوها...! فلم يخرجوا للدنيا جماعةً تامةً الإنسانية، فضلاً عن أمة كما وصفت  
أنت من أمر المسلمين; فكيف استطاع نبيهم أن يُخرجَ هذه الأمة وهم يقولون إنه كان  
أمياً; أفتسخرُ الحقيقة من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير; فتدعهم  
يعملون عبثاً أو كالعبيث، ثم تستسلم للرجل الأمي الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس  
ولم يتعلم؟

قالت أرمانوسة: إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلakها، ليسوا هم الذين  
يشقون الفجر ويطلعون الشمس; وأنا أرى أنه لا بد من أمة طبيعية بفطرتها يكون  
عملها في الحياة إبداع الأفكار العملية الصحيحة التي يسير بها العالم، وقد درست  
المسيحَ وعمله وزمنه، فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة، غير أنه أوجدها  
مُصغرة في نفسه وحوارييه، وكان عمله كالبداء في تحقيق الشيء العسير; حسبته أن  
يُثبت معنى الإيمان فيه .

وظهورُ الحقيقة من هذا الرجل الأمي هو تنبيه الحقيقة إلى نفسها; وبرهانها القاطعُ  
أنها بذلك في مظهرها الإلهي. والعجيبُ يا مارية، أن هذا النبي قد خذله قومه

وناكروه وأجمعوا على خلافه، فكان في ذلك كالمسيح، غير أن المسيح انتهى عند ذلك؛ أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع؛ لا يرتدُّ ولا يتغير؛ وهاجر من بلده، فكان ذلك أول خطأ الحقيقة التي أعلنت أنها ستَمشي في الدنيا، وقد أخذت من يومئذ تمشي. ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لها جرت به كذلك، فهذا فرق آخر بينهما. والفرق الثالث أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هي عبادة القلب، أما هذا الدين فعلمت من أبي أنه ثلاثُ عبادات يشدُّ بعضها بعضاً: إحداها للأعضاء، والثانية للقلب، والثالثة للنفس؛ فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط؛ وعبادة القلب طهارته وحبُّه الخير؛ وعبادة النفس طهارتها وبذلها في سبيل الإنسانية. وعند أبي أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا؛ فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدُّهما .

قالت مارية: إن هذا والله لسِرِّ إلهي يدل على نفسه؛ فمن طبيعة الإنسان ألا تتبع نفسهُ غيرَ مبالية الحياة والموت إلا في أحوال قليلة، تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء: كالغضب الأعمى، والحب الأعمى، والتكبر الأعمى؛ فإذا كانت هذه الأفة الإسلامية كما قلت منبعثة هذا الانبعاث، ليس فيها إلا الشعور بذاتيتها العالية -فما بعد ذلك دليل على أن الدين هو شعور الإنسان بسموِّ ذاتيته، وهذه هي نهاية النهايات في الفلسفة والحكمة .

قالت أرمانوسة: وما بعد ذلك دليل على أنك تنهين أن تكوني مسلمة يا مارية ! فاستضحكتا معاً وقالت مارية: إنما ألقيت كلاماً جاريتك فيه بحسبه، فأنا وأنت فكرتان لا مسلمتان .

\*\*\*

قال الراوي: وانهزم الروم عن بلبيس، وارتدوا إلى المقوقس في (متف)، وكان وحي أرمانوسة في مارية مدة الحصار - وهي نحو الشهر - كأنه فكر سكن فكرياً وتمدد فيه؛ فقد مر ذلك الكلام بما في عقلها من حقائق النظر في الأدب والفلسفة، فصنع ما يصنع المؤلف بكتاب ينقحه، وأنشأ لها أخيلةً تجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه



صحيح، والمؤكد لأنه مؤكد .

ومن طبيعة الكلام إذا أثر في النفس، أن ينتظم في مثل الحقائق الصغيرة التي تُلقى للحفظ؛ فكان كلامُ أرمانوسة في عقل مارية هكذا: "المسيحُ بدءٌ وللبداء تَكْمَلَةٌ، ما من ذلك بد. لا تكون خدمةُ الإنسانية إلا بذات عالية لا تبالي غيرَ سموها. الأمةُ التي تبذل كل شيء وتستمسكُ بالحياة جُبْنًا وحرصاً لا تأخذ شيئاً، والتي تبذل أرواحها فقط تأخذ كل شيء ."

وجعلتُ هذه الحقائقُ الإسلاميةُ وأمثالها تُعزب هذا العقلَ اليوناني؛ فلما أراد عمرو بن العاص توجيهَ أرمانوسةَ إلى أبيها، وانتهى ذلك إلى ماريةَ قالت لها: لا يَجْمَلُ بمن كانتَ منكِ في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيدة، تتوجَّه حيث يُسارُ بها؛ والرأي أن تبدئي هذا القائدَ قبل أن يبدأك؛ فأرسلني إليه فأعلميه أنك راجعة إلى أبيك، واسأليه أن يُصحبك بعضَ رجاله؛ فتكوني الأمرةَ حتى في الأسر، وتصنعي صنُعَ بناتِ الملوك .! قالت أرمانوسة: فلا أجد لذلك خيراً منك في لسانك ودَهائِك؛ فإذهبي إليه من قبلي، وسيصحبك الراهبُ (شطاً)، وخذي معك كوكبة من فرساننا .

\*\*\*

قالت ماريةُ وهي تقصُّ على سيدتها: لقد أدبتُ إليه رسالتك فقال: كيف ظننا بنا؟ قلت: ظننا بفعلِ رجل كريم يأمره اثنان: كرمه، ودينه. فقال: أبلغها أن نبينا "ص" قال: "استوصوا بالقبطِ خيراً فإن لهم فيكم صِهرًا ودمه". وأعلميها أننا لسنا على غارة نُغيرُها، بل على نفوس نُغيرُها. قالت: فصفيه لي يا مارية .

قالت: كان أتياً في جماعة من فرسانه على خيولهم العراب، كأنها شياطينُ تحمل شياطينَ من جنس آخر؛ فلما صار بحيث أتبيته أوماً إليه الترجمانُ - وهو (وردان) مولاه - فنظرتُ، فإذا هو على فرسٍ كُميتٍ أحْمٍ (أحمر ضارب للسواد) لم يخلص للأسود ولا للأحمر، طويلِ العنقِ مُشْرِفٍ له ذؤابةُ أعلى ناصيته كطُرَّةِ المرأة، ذيَّال يتبختر بفارسه ويحممُ كأنه يريد أن يتكلم، مُطَهَّم ...

فقطت أرمانوسة عليها وقالت: ما سألتك صفة جواده ...

قالت مارية: أما سلاحه ...

قالت: ولا سلاحه، صفيه كيف رأيته (هو)!

قالت: رأيته قصيرَ القامةِ علامةَ قوةٍ وصلابةٍ، وافرَ الهامةِ علامةَ عقلٍ وإرادةٍ، أدعجَ

العينين ...

فضحكتُ أرمانوسة وقالت: علامة ماذا؟ ...

...أبلج يُشْرِقُ وجهُه كأن فيه لألاء الذهب على الضوء، أيّداً اجتمعت فيه القوةُ حتى

لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً... داهيةً كتبَ دهاوّه على جبهته العريضة يجعل

فيها معنىً يأخذ من يراه، وكلما حاولتُ أن أتقرّسَ في وجهه رأيتهُ وجهه لا يُفسرُه إلا

تكرراً النظرُ إليه ..

وتضرّجتُ وجنتاها، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عينيّ أرمانوسة !.

وقالت هذه: كذلك كل لذة لا يفسرها للنفس إلا تكرارها ...

فغضت مارية من طرفها وقالت: هو والله ما وصفت، وإني ما ملأتُ عيني منه، وقد

كدتُ أنكر أنه إنسان لما اعتراني من هيئته ...

قالت أرمانوسة: من هيئته أم عينيهِ الدعاوين...؟

\*\*\*

ورجعتُ بنتُ المقوقس إلى أبيها في صحبة (قيس)، فلما كانوا في الطريق وجبتُ

الظُّهر، فنزل قيس يُصلي بمن معه والفتاتان تنتظران؛ فلما صاحوا: "الله أكبر...!"

ارتعش قلبُ مارية، وسألت الراهبَ (شطاً): ماذا يقولون؟ قال: إن هذه كلمة يدخلون

بها صلاتهم، كأنما يخاطبون بها الزمنَ أنهم الساعةَ في وقت ليس منه ولا من دنياهم،

وكانهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر من الوجود؛ فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت

ونزاع الوقت وشهواتِ الوقت، فذلك هو دخولهم في الصلاة؛ كأنهم يَمحُونَ الدنيا من

النفس ساعةً أو بعضَ ساعةٍ؛ ومحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها؛

انظري، ألا ترى هذه الكلمة قد سحرتهم سحراً فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء؛

وقد شملتهم السكينة، ورجعوا غيرَ من كانوا، وخشعوا خشوعَ أعظم الفلاسفة في

تأملهم؟ .

قالت مارية: ما أجملَ هذه الفطرةَ الفلسفية! لقد تَعَبَتِ الكُتُبُ لتجعلَ أهلَ الدنيا يستقروُن ساعةً في سَكينةِ اللهِ عليهمَ فما أَفَلَحَتْ، وجاءتِ الكنيسةُ فهَوَّلتِ على المُصلين بالزخارفِ والبخورِ والتماثيلِ والألوانِ، لتُوحِيَ إلى نفوسهم ضرباً من الشعورِ بسكينةِ الجمالِ وتقديسِ المعنى الديني، وهي بذلك تحتال في نقلهم من جوِّهم إلى جوِّها؛ فكانت كساقِي الخمرِ؛ إن لم يُعطكَ الخمرَ عَجَرَ عن إعطائكِ النشوة. ومن ذا الذي يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جوادٍ أو حمارٍ؟

قالت أرمَانوسة: نعم إن الكنيسةَ كالحديقة؛ هي حديقة في مكانها، وقلما تُوحِي شيئاً إلا في موضعها؛ فالكنيسةُ هي الجدرانُ الأربعة، أما هَوْلَاءُ فمعبدهم بين جهات الأرض الأربعة .

قال الراهب شطا: ولكن هَوْلَاءُ المسلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا وافتتتوا بها وانغمسوا فيها - فستكون هذه الصلاةُ بعينها ليس فيها صلاة يومئذ .

قالت مارية: وهل تُفْتَحُ عليهم الدنيا، وهل لهم قُوَاد كثيرون كَعَمَرَو..؟  
قال: كيف لا تُفْتَحُ الدنيا على قوم لا يُحَارِبُونَ الأُمَّم بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج في المد المرتفع؛ ليس في دَاخلها إلا أنفُسٌ مندفعَةٌ إلى الخارج عنها؛ ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمماً ليس في الداخل منها إلا النفوسُ المستعدَّةُ أن تهربَ إلى الداخل! ...

قالت مارية: والله لكأننا ثلاثتنا على دينِ عَمَرَو ....

وانفنتل قيس من الصلاة، وأقبل يترحل، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع؛ وكانت ما تزال في أحلام قلبها؛ وكانت من الحُلم في عالم أخذ يتلاشى إلا من عَمَرَو وما يتصل بعَمَرَو. وفي هذه الحياةِ أحوال! "ثلاث" يغيب فيها الكونُ بحقائقه؛ فيغيبُ عن السكران، والمخبول، والنائم؛ وفيها حالةٌ رابعةٌ يتلاشى فيها الكونُ إلا من حقيقة واحدة تتمثل في إنسان محبوب .

وقالت مارية للراهب شطا: سلُّهُ: ما أربُّهم من هذه الحرب، وهل في سياستهم أن

يكون القائد الذي يفتح بلداً حاكماً على هذا البلد...؟

قال قيس: حسبك أن تعلمي أن انرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً في تحقيته كلمة الله، أما حظ نفسه فهو في غير هذه الدنيا .

وترجمَ الراهبُ كلامه هكذا: أما الفاتحُ فهو في الأكثرِ الحاكم المقيم، الحربُ فهي عندنا الفكرةُ وأما المصلحةُ تريد أن تضربَ في الأرض وتعمل، وليس حظُّ النفس شيئاً يكون من الدنيا؛ وبهذا تكون النفسُ أكبر من غرائزها، وتتقلب معها الدنيا برعونتها وحمقاتها وشهواتها كالطفل بين يدي رجل، فيهما قوةٌ ضبطه وتصريفه. ولو كان في عقيدتنا أن ثواب أعمالنا في الدنيا، لانعكس الأمر .

قالت مارية: فسئله: كيف يصنعُ (عمرو) بهذه القلة التي معة والروم لا يُحصي عددهم؛ فإذا أخفقَ (عمرو) فمن عسى أن يستبدلوه منه؛ وهل هو أكبرُ قوادهم، أو فيهم أكبرُ منه؟

قال الراوي: ولكن فرسَ قيس تمطرُ وأسرع في لحاقِ الخيل على المقدمة كأنه يقول :  
لَسْنَا فِي هَذَا ...

\*\*\*

وفتحت مصرُ صلحاً بين عمرو والقبط، وولى الرومُ مُصعدين إلى الإسكندرية، وكانت مارية في ذلك تستقرىء أخبارَ الفاتح تطوفُ منها على أطلال من شخص بعيد؛ وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملك إلا حُبهُ أن يأخذها؛ وجعلت تذوي وشحبَ لونها وبدأت تنظر النظرَ التائهة: وبان عليها أثر الروح الظمأى؛ وحاطها اليأسُ بجوه الذي يُحرق الدم؛ وبدت مجروحة المعاني؛ إذ كان يتقاتل في نفسها الشعوران العدوان: شعورُ أنها عاشقة، وشعورُ أنها يائسة !

ورقت لها أرمأنوسة، وكانت هي أيضاً تتعلق فتى رومانياً، فسهرت ليلةً تُديران الرأي في رسالة تحملها مارية من قبلها إلى عمرو كي تصل إليه، فإذا وصلت بلغت بعينها رسالة نفسها... واستقرَّ الأمرُ أن تكون المسألة عن مارية القبطية وخبرها ونسلها وما يتعلقُ بها مما يطول الإخبارُ به إذا كان السؤالُ من امرأة عن امرأة. فلما أصبحنا وقع

إليها أن عمراً قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفُسْطاطه  
أن يُقَوِّضَ أصابوا يمامةً قد باضت في أعلاه، فأخبروه فتال: "قد تَحَرَّمَتْ في جوارنا،  
أَقْرُوا الفسْطاطَ حتى تطيرَ فِرَاخُها". فأقَرَّوه !

\*\*\*

ولم يمضِ غيرُ طويلٍ حتى قضت ماريةً نجبها، وحَفِظت عنها أرمانوسةُ هذا الشعر  
الذي أسمته: نشيد اليمامة .

على فُسْطاط الأمير يمامة جائمة تحضن بيضها .  
تركها الأميرُ تصنعُ الحياة، وذهب هو يصنعُ الموت !  
هي كأسعد امرأة؛ تَرَى وتلمسُ أحلامها .  
إن سعادةَ المرأةِ أولها وآخرها بعضُ حقائق صغيرة كهذا البيض .  
على فسْطاط الأمير يمامةً جائمةً تحضن بيضها .  
لو سُئِلتُ عن هذا البيض لقلت: هذا كنزي .  
هي كأهناً امرأة، مَلَكْتَ ملكها من الحياة ولم تفتقر .  
هل أُكَلِفُ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا كلفتهُ رجلاً واحداً أحبه !

\*\*\*

على فسْطاط الأمير يمامة جائمة تحضن بيضها .  
الشمسُ والقمرُ والنجوم، كُلُّها أصغرُ في عيناها من هذا البيض .  
هي كأرق امرأة؛ عرفت الرقَّةَ مرتين: في الحب، والولادة .  
هل أُكَلِفُ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا أردتُ أن أكون كهذه اليمامة !

\*\*\*

على فسْطاط الأمير يمامة جائمة تحضن بيضها .  
تقول اليمامة: إن الوجودَ يحب أن يُرى بلونين في عين الأنثى ;  
مرةً حبيباً كبيراً في رَجُلها، ومرةً حبيباً صغيراً في أولادها .  
كلُّ شيءٍ خاضع لقانونه؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها .

\*\*\*

أيتها اليمامة، لم تعرفي الأميرَ وترك لك فسطاطه !  
هكذا الحظ: عدل مضاعفٌ في ناحية، وظلم مضاعف في ناحية أخرى .  
احمدي اللهَ أيتها اليمامة، أن ليس عندكم لغات وأديان، عندكم فقط: الحب والطبيعةُ و  
الحياة

## أحلام في الشارع

على عتبةِ (البنك) نامَ الغلامُ وأختهُ يفترشانِ الرخامَ البارد، ويلتحفانِ جواً رخامياً في  
برده وصلابتهِ على جسميهما.  
الطفلُ مُتَكَبِّبٌ في ثوبه كأنه جسمٌ قُطِعَ ورُكِّمَتْ أعضاؤه (ركب بعضها فوق بعض)  
بعضها على بعض، وسُجِّيتْ بثوب، ورُمِيَ الرأسُ من فوقها فمالَ على خده.  
والفتاةُ كأنها من الهُزالِ رَسْمٌ مُخَطَّطٌ لامرأة، بدأها المصورُ ثم أغفلها إذ لم تُعجبه.  
كُتِبَ الفقرُ عليها للأعينِ ما يكتبُ الذبولُ على الزهرة: أنها صارت قشاً... نائمة في  
صورةٍ ميتة، أو كميتهِ في صورة نائمة، وقد انسكبَ ضوءُ القمرِ على وجهها، وبقي  
وجهُ أخيها في الظل، كأن في السماءِ ملكاً وجَّهَ المصباحُ إليها وحدها، إذ عرفَ أن  
الطفلَ ليس في وجهه علامةٌ همٌّ، وأن في وجهها هي كلُّ همها وهمُّ أخيها.  
من أجلِ أنها أنثى قد خُلِقَتْ لَتَلِدَ - خُلِقَ لها قلبٌ يحملُ الهمومَ ويلدُها ويربِّيها.  
من أجلِ أنها أعدتْ للأمومة، تتألمُ دائماً في الحياةِ الآلامَ فيها معنى انفجارِ الدم.  
من أجلِ أنها هي التي تزيِدُ الوجودَ، يزيِدُ هذا الوجودُ دائماً في أحزانها.

وإذا كانت بطبيعتها تُقاسي الألم لا يُطاق حين تلدُ فرَحَها، فكيف بها في الحزن!...

وكان رأسُ الطفلِ إلى صدرِ أخته، وقد نامَ مطمئناً إلى هذا الوجودِ النسوي، الذي لا بُدَّ منه لكل طفلٍ مثله، ما دامَ الطفلُ إذا خرجَ من بطنِ أمهٍ خرجَ إلى الدنيا وإلى صدرها معاً.

ونامت هي ويدها مُرسلةً على أخيها كيدِ الأم على طفلها. يا إلهي! نامت ويدها مستيقظة!

أهما طفلانِ؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانية التي شقيتُ بالسعداءِ فعوضها اللهُ من رحمتهِ ألا تجدَ شقياً مثلاً ألا تضاعفتُ سعادتها به؟

تمثالانِ يصورانِ كيف يسري قلبُ أحدِ الحبيينِ في الجسمِ الآخر، فيجعلُ له وجوداً فوقَ الدنيا، لا تصلُ الدنيا إليه بفقرها وغناها، ولا سعادتها وشقاؤها، لأنه وجودُ الحب لا وجودُ العمر، وجودٌ سحريٌّ ليس فيه معنى للكلمات، فلا فرقَ بينَ المالِ والترابِ، والأميرِ والصُّلوكِ، إذ اللغةُ هناكِ إحساسُ الدم، وإذ المعنى ليس في أشياءِ المادةِ ولكن في أشياءِ الإرادة.

وهل تحيا الألفاظُ مع الموت، فيكونَ بعده للمالِ معنى وللترابِ معنى...؟ هي كذلك في الحب الذي يفعلُ شبيهاً بما يفعلهُ الموتُ في نقلهِ الحياةِ إلى عالمِ آخر، بيِّدَ أن أحدَ العالمينِ وراءَ الدنيا، والآخرَ وراءَ النفسِ.

تحت يدِ الأختِ الممدودةِ ينامُ الطفلُ المسكين، ومن شعورهِ بهذه اليدِ، خف ثقلُ الدنيا على قلبه.

لم يبالِ أن نبَّده العالمُ كله، ما دامَ يجدُ في أخته عالمَ قلبه الصغيرِ وكأنه فرخ من فراخ الطيرِ في عُشه المعلق، وقد جمَعَ لحمه الغضَّ الأحمرَ تحت جناحِ أمه، فأحس أنها السعادة حين ضيقَ في نفسه الكونَ العظيم، وجعله وجوداً من الريش. وكذلك يسعدُ

كل من يملك قوة تغيير الحقائق وتبديلها، وفي هذا تفعل الطفولة في نشأة عمرها ما لا تفعل بعضه معجزات الفلسفة العليا في جملة أعمار الفلاسفة.

وما صنع الذين جنوا بالذهب، ولا الذين فتنوا بالسلطة، ولا الذين هلكوا بالحب، ولا الذين تحطموا بالشهوات - إلا أنهم حاولوا عبثاً أن يرشوا رحمة الله لتعطيهم في الذهب والسلطة والحب والشهوات ما ناولته هذا الطفل المسكين النائم في أشعة الكواكب تحت ذراع كوكب روجه الأرضي.

ألا إن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشتري الطريقة الهنيئة التي ينبض بها الساعة قلب هذا الطفل.

وقفتُ أشهدُ الطفلين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعدُ وملائكة تنزل، وقلتُ هذا موضع من مواضع الرحمة، فإن الله مع المنكسرة قلوبهم، ولعلي أن أتعرض لنفحة من نفحاتها، ولعل ملكاً كريماً يقول: وهذا بائس آخر، فيرفني بجناحه رفة ما أحوج نفسي إليها، تجذبها في الأرض لمسة من ذلك النور المتأليء فوق الشمس والقمر.

وظهر لي بناء (البنك) في ظلمة الليل من مرأى الغلامين - أسود كالحا، كأنة سجن أفل على شيطان يمسكه إلى الصبح، ثم يفتح له لينطلق مفرأ، أي مخرباً... أو هم جسم جبار كفر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فمسخه الله بناء، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعاني آثامه وكفره..

يا عجباً! بطنان جائعان في أطمار بالية يبيتان على الطوى (الجوع) والهم، ثم لا يكون وسادهما إلا عتبة البنك! ترى من الذي لعن (البنك) بهذه اللعنة الحية؟ ومن الذي وضع هذين القلبين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنك خزائن حديدية يملؤها الذهب، ولكنه خزائن قلبية يملؤها الحب...؟

وقفتُ أرى الطفلين رؤية فكر ورؤية شعر معاً، فإذا الفكر والشعر يمتدان بيني وبين



أحلامهما، ودخلتُ في نفسيْن مضتَهُما الهُْمُ واشتدَّ عليهما الفقرُ، وما من شيءٍ في الحياةِ إلا كدَّهُما (أتعبهما) وعاسرَهُما، ونمتُ نومتي الشعرية...  
قال الطفلُ لأخته: هلمي فلنذهب من هنا فننقفَ على بابِ (السيما) نتفرجُ ممّا بنا، فنرى أولادَ الأغنياءِ الذينَ لهم أبٌ وأمٌ.

انظري ها هم أولاءِ يرى عليهم أثرُ الغنى، وتُعرفُ فيهم رُوحُ النعمة، وقد شَبِعوا...  
إنهم يلبسونَ لحماً على عظامهم، أما نحن فنلبسُ على عظامنا جلدًا كجلدِ الحذاء، إنهم أولادُ أهلِيهم، أما نحن فأولادُ الأرضِ، هم أطفالُ، ونحن حطَبُ إنسانيِّ يابِسٍ، يعيشون في الحياةِ ثم يموتون، أما نحن فعيشُنَا هو سكراتُ الموتِ، إلى أنْ نموتَ، لهم عيشٌ وموتٌ، ولنا الموتُ مكرراً.

ويَلي على ذلكِ الطفلِ الأبيضِ السمينِ، الحَسَنِ البَزَةِ (الزبي)، الأنيقِ الشاردة، ذاك الذي يأكلُ الحلوى أكلَ لصٍ قد سرقَ طعاماً فأشرعَ يحدِرُ في جوفه ما سرقَ، هو الغنى الذي جعله يبتلعُ بهذه الشراهة (شدة الأكل)، كأنما يشربُ ما يأكلُ، أو له حلقٌ غيرُ الحُلوقِ، ونحن - إذا أكلنا - نغصُ بالخبزِ لا أدمَ معه، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالةِ لم نجدِ إلا البَشيعَ مِنَ الطعامِ، وأصبناه عَفِنًا أو فاسداً لا يسُوغُ في الحلقِ، فإذا انخفَضنا فليسَ إلا ما نَنَقَمُ من قُشورِ الأرضِ ومن حُتَاتِ الخبزِ (فُتَاتِه) كالدوابِ والكلابِ، وإن لم نجدِ ومسنا العُدْمَ وقفنا نَتَحِينُ طعامَ قومِ في دارٍ أو نُزِّلَ، فنراهم يأكلونَ فنأكلُ معهم بأعيننا، ولا نطمعُ أنْ نستطعمهم وإلا أطعمونا ضرباً فنكونُ قد جنناهم بألمٍ واحدٍ فردُّونا بالأمينِ، ونفقُدُ بالضربِ ما كان يُمسِكُ رَمَقَنَا مِنَ الاحتمالِ والصبرِ.

هؤلاءِ الأطفالِ يتصورون شهوةً كلما أكلوا، ليعودوا فيأكلوا، ونحن نتصورُ جوعاً ولا نأكلُ، لنعودَ فنجوعَ ولا نأكلُ، وهم بينَ سمعِ أهلِيهم وبصرِهم، ما من أنَّةٍ إلا وقعت في قلبِ، وما من كلمةٍ إلا وجدَّتِ إجابةً، ونحن بينَ سمعِ الشوارعِ وبصرِها، أنينُ ضائعٌ، ودموعٌ غيرُ مرحومة!

آه لو كبرتُ فصرتُ رجلاً عريضاً، أتدريين ماذا أصنع؟

-ماذا تصنعُ يا أحمد؟

-إنني أخنقُ بيدي كل هؤلاءِ الأطفال!

-سوأةُ لك يا أحمد، كل طفل من هؤلاءِ له أمٌ مثلُ أمنا التي ماتت، وله أختٌ مثلي،

فما عسى ينزلُ بي لو تَكَلَّتْكَ (فقدتكَ بموتك) إذا خنقك رجلٌ طويلٌ عريضٌ؟

-لا، لا أخنقُهم، بل سأرضيهم من نفسي، أنا أريدُ أن أصيرَ رجلاً مثل (المدير) الذي

رأيناهُ في سيارتهِ اليومَ على حالٍ من السطوةِ تُعلنُ أنه المدير... أتدرينَ ماذا أصنعُ؟

-ماذا تصنعُ يا أحمد؟

-أرأيتِ عربةَ الإسعافِ التي جاءتْ عندَ الظهرِ فانقلبتْ نعشاً (تابوتاً) للرجلِ الهرمِ

المحطمِ الذي أُغميَ عليه في الطريقِ؟ سمعتهم يقولون: إن المديرَ هو الذي أمرَ باتخاذِ

هذه العربة، ولكنه رجلٌ غفُلٌ لم يتعلم من الحياةِ مثلنا، ولم تُحكِمْه تجاربُ الدنيا،

فالذي يموتُ بالفجأةِ أو غيرها لا يُحْييه المديرُ ولا غيرُ المديرِ، والذي يقعُ في

الطريقِ يجدُ من الناسِ من يبتدرونه لِنَجْدَتِهِ وإسعافِهِ بقلوبِ إنسانيةٍ رحيمة، لا بقلبِ

سواقِ عربةٍ ينتظرُ المصيبةَ على أنها رزقٌ وعيشٌ.

إن عَرَبَاتِ الإسعافِ هذه يجبُ أن يكونَ فيها أكلٌ... ويجبُ أن تحملَ أمثالنا من

الطرقِ والشوارعِ إلى البيوتِ والمدارسِ، وإن لم يكن للطفلِ أمٌ تُطعمُه وتؤيِّه فلتُصنَعِ

له أم.

كل شيءٍ أراه لا أراه إلا على الغلط، كأن الدنيا منقلبةٌ أو مديرةٌ إدارتها، وما قط

رأيتُ الأمورَ في بلادنا جاريةً على مجاريها، فهؤلاءِ الحكامُ لا ينبغي أن يكونوا إلا

من أولادِ صالحِ الفقراءِ، ليحكموا بقانونِ الفقرِ والرحمة، لا بقانونِ الغنى والقسوة،

وليتقحَّموا الأمورَ العظيمةَ المشتبهةَ بنفوسِ عظيمةٍ صريحةٍ قد نبتت على صلابةٍ

وبأس، وخلقٍ ودينٍ ورحمة، فإنه لا يهزمُ في معركةِ الحوادثِ إلا روحُ النعمةِ في

أهلِ النعمة، وأخلاقُ اللينِ في أهلِ اللين، وبهؤلاءِ لم يبرحِ الشرقُ من هزيمةٍ سياسيةٍ

في كلِّ حادثةٍ سياسيةٍ.

إن للحكمِ لحمًا ودمًا هم لحمُ الحاكمِ ودمُهُ فإن كان صلباً خشناً فيه رُوحُ الأرضِ

ورُوحِ السماءِ فذاك، وإِلا قَتَلَ اللينُ والتَرَفُ الحِكمَ والحاكِمَ جميعاً. وهؤلاءِ الحِكامُ من أولادِ الأَغنياءِ لا يكونُ لهم هم إلا أن يرفعوا من شأنِ أنفُسِهِم، إذِ السُلطةُ درجةٌ فوقَ الغِنى، ومن نال هذه استترفَ لتلك، فإذا جمعوها كان منهما الخُلُقُ الظالمُ الذي يَصورُ لهمُ الاعتداءَ قوَّةً وسطوةً وعلوًّا، من حيثِ عَدِموا الخُلُقَ الرَحيماً الذي يَصورُ لهمُ هذه القوَّةَ ضعفاً وجُبناً ونذالةً. إن أحدهم إذا حَكمَ وتسلطَ أرادَ أن يضربَ، ثم لم تكن ضربتُهُ الأولى إلا في المبدأ الاجتماعي للأمة، أو في الأصلِ الأدبي للإنسانية. يحرصونَ على ما به تمامُهم، أي على السُلطة، أي على الحِكم، فيحملُهم ذلك على أن يتكفلوا للحرصِ أخلاقه، وأن يجمعوا في أنفُسِهِم أسبابه؟ مِنَ المداراةِ والمصانعةِ والمهاوَنَةِ، نازلاً فَنازلاً إلى دَرَكٍ بعيد، فينثرونَ أسوأَ الأخلاقِ بقوَّةِ القانونِ ما داموا هُمُ القوَّة.

-وماذا تريدُ أن يصنعَ أولادُ الأَغنياءِ يا أحمد؟

-أما أولادُ الأَغنياءِ فيجبُ أن يباشروا الصناعاتَ والتجارةَ، ليجدوا عملاً شريفاً يُصيبونَ منه رزقهم بأيديهم لا بأيدي آبائهم، فإنَّهُ واللهِ لولا العمى الاجتماعيُّ لما كان فرقَ بين ابنِ أميرٍ متبطلٍ (عاطل عن العمل) في أملاكِ أبيه مِنَ القصورِ والضياغِ، وابنِ فقيرٍ متبطلٍ في أملاكِ المجلسِ البلديِّ مِنَ الأزقةِ والشوارعِ. وابنِ الأميرِ إذا كان نجاراً أو حداداً أصلحَ السوقَ والشارعَ بأخلاقه الطيبةِ اللينةِ، وتعففه وكرمه، فيتعلمُ سوادُ الناسِ منه الأمانةَ والصدقَ، إذ هو لا يكذبُ ولا يسرقُ ما دامَ فوقَ الاضطرارِ، ولا كذلك ابنُ الفقيرِ الذي يَضرطُهُ العيشُ أن يكونَ تاجراً أو صانعاً، فتكونَ حرفتهُ التجارةُ وهي السرقةُ، أو الصناعاتُ وهي الغشُ، ويكونُ في الناسِ أكثرَ عُمره مادةَ كَذِبٍ وإثمٍ ولصوصيةٍ.

آه لو صِرتُ مديراً! أتدرينَ ماذا أصنعُ؟

-ماذا تصنعُ يا أحمد؟

-أعمدُ إلى الأَغنياءِ فأردُّهم بالقوَّةِ إلى الإنسانيةِ، وأحملهم عليها حملاً، أصلحُ فيهم صفاتها التي أفسدها الترفُ واللينُ والنعمةُ، ثم أصلحُ ما أخل به الفقرُ من صفاتِ

الإنسانية بالفقراء، وأحملهم على ذلك حملاً، فيستوي هؤلاء وهؤلاء، ويتقاربون على أصل في الدم إن لم يلدوه آباؤهم ولده القانون. ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادي الصفات الإنسانية في أفرادها، فتقطع ما بينهم، فهم أعداء في وطنهم، وإن كان اسمهم أهل وطنهم.

ومتى أحكمت الصفات الإنسانية في الأمة كلها ودانى بعضاً- صار قانون كل فرد كلمتين، لا كلمة واحدة كما هو الآن. القانون الآن (حقي) ونحن نريد أن يكون (حقي) وواجبي) وما أهلك الفقراء بالأغنياء، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام- إلا قانون الكلمة الواحدة.

أنا أحمد المدير.... لست المدير بما في نفس أحمد، ولا بمعدته ووطنه، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده.... كلا، أنا عمل اجتماعي منظم يحكم أعمال الناس بالعدل، أنا خلق ثابت يوجه أخلاقهم بالقوة، أنا الحياة الأم مع الحياة الأطفال الأخوة في هذا البيت الذي يسمى الوطن، أنا الرحمة، عندي الجنة ولكن عندي جهنم أيضاً ما دام في الناس من يعصي، أنا بكل ذلك لست أحمد، لكني الإصلاح.

هأنذا قد صرت مديراً أعس في الطريق بالليل وأنفقد الناس ونوائبهم. من أرى؟ هذا طفل وأخته على عتبة البنك في حياة كأهدامهما (أثوابهما) المرقعة، في دنيا تمزقت عليهما، قم يا بني، لا ترع إنما أنا كأبيك، تقول: اسمك أحمد، واسم اختك أمينة؟

تقول إنك ما نمت من الجوع، ولكن مضمضت عينك بشعاع النوم؟  
يا ولدي المسكينين. بأي ذنب من دنوبكما دقتكما الأيام دقا وطحنكما طحنا، وبأي فضيلة من الفضائل يكون ابن فلان باشا، و بنت فلان باشا في هذا العيش اللين يختاران منه ويتأقان (يلبسان النيق من الثياب) فيه، ما الذي نفع الوطن منهما فيعيشا؟  
إن كنت يا بني لا تملك لنفسك الانتصار من هذه الظلمة فأنا أملكها لك، وإنما أنا

المظلومُ إلى أن تنتصر، وإنما أنا الضعيفُ إلى أن أخذَ لك الحق.

إلى يا ابنِ فلانِ باشا وبنْتِ فلانِ باشا.

يا هذا عليك أخاك أحمدَ ولتكنْ به حَفِيًّا (مُرحباً)، ويا هذه، عليك أختك الأنسة  
أمينة....

أتأبين، أنفراً من الإنسانية، وتمرداً على الفضيلة، أحقاً بلا واجب، دائماً قانونُ الكلمة  
الواحدة؟! خلقتما أبيضين سخرية من القدرِ وأنتما في النفسِ من أحبوشةِ الزنجِ (شدة  
سواد اللون و الأدمة) ومناكيدِ العبيد.

ورفع أحمدُ يده....

وكان الشرطي الذي يقومُ على هذا الشارع، وإليه حراسةُ البنك، قد تَوَسَّهَهما (أثامهما و  
هما نائمين) ودخلته الرّيبة، فأنتهى إليهما في تلك اللحظة، وقبل أن تنزلَ يدُ سعادةِ  
المديرِ بالصفعة على وجهِ ابنِ الباشا وبنْتِ الباشا كان هذا الشرطيُّ قد ركَّله برجله،  
فوثبَ قائماً وأجذبَ أخته وأنطلقا عدو الخيلِ من الهُوبِ السَّوطِ.

وتمجدتِ الفضيلةُ كعادتها...!!.. أن مسكيناً حَمَّ بها..

## عَرُوسٌ تُزَفُّ إِلَى قَبْرِهَا

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ تُسمى أيامًا.

كان عمرُها طاقةَ أزهارٍ يَنْتَسِقُ فيه اليَوْمُ بعدَ اليَوْمِ، كما تَنْبُتُ الورقةُ الناعمةُ في الزهرة إلى ورقة ناعمةٍ مِثْلِهَا.

أيام الصِّبَا المرححة حتى في أحزانها وهمومها؛ إذ كان مجيئُها من الزمن الذي خُصَّ بشباب القلب، تبدو الأشياء في مجاري أحكامها كالمسحورة؛ فإن كانت مفرحة جاءت حاملة فرحَيْن، وإن كانت محزنة جاءت بنصف الحزن.

تلك الأيام التي تعمل فيها الطبيعة لشباب الجسم بقوى مختلفة: منها الشمس والهواء والحركة، ومنها الفرح والنسيان والأحلام!

وشبت العذراء وأفرغت في قالب الأبوثة الشمسي القمري، واكتسى وجهها ديباجة من الزهر الغض، وأودعتها الطبيعة سرها النسائي الذي يجعل العذراء فن جمالها لأنها فن حياة، وجعلتها تمثالاً للظرف: وما أعجب سحر الطبيعة عندما تجمل العذراء بظرف كظرف الأطفال الذين ستلدهم من بعد! وأسبغت عليها معاني الرقة والحنان وجمال النفس، وما أكرم يد الطبيعة عندما تَمَهَّرُ العذراء من هذه الصفات مهرها الإنساني!

وخطبت العذراء لزوجها، وعقد له عليها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر.

وماتت عذراء بعد ثلاث سنين، أُنزِلت إلى قبرها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر!

وكانت السنوات الثلاث عمر قلب يقطعه المرض، ينتظرون به العرس، و ينتظر بنفسه

## الرّمس(1).

يا عجائب القدر! أذاك لحن موسيقي لأنين استمر ثلاث سنوات، فجاء آخره موزوناً بأوله في ضبط ودقة؟

أكانت تلك العذراء تحمل سرّاً عظيماً سيغير الدنيا، فردت الدنيا عليها يوم التهنئة والابتسام والزينة، فإذا هو يوم الولولة والدموع والكفن؟

وهاً لك أيها الزمن! من الذي يفهمك وأنت مدة أقدار؟

واليوم الواحد على الدنيا هو أيام مختلفة بعدد أهل الدنيا جميعاً، وبهذا يعود لكل مخلوق سر يومه، كما أن لكل مخلوق سر روحه، وليس إليه لا هذا ولا هذا.

وفي اليوم الزمني الواحد أربعمائة مليون يوم إنساني على الأرض! ومع ذلك يُحصيه عقلُ الإنسان أربعاً وعشرين ساعة؛ يا للغباوة!..

وكل إنسان لا يتعلق من الحياة إلا بالشعاع يُضيء المكان المظلم في قلبه، والشمس بما طلعت عليه لا تستطيع أن تنير القلب الذي لا يُضيئه إلا وجهٌ محبوب.

وفي الحياة أشياء مكدوبة تُكبر الدنيا وتُصغر النفس، وفي الحياة أشياء حقيقية تُعظم بالنفس وتصغر بالدنيا؛ وذهَبُ الأرض كله فقر مُدقّع حين تكون المعاملة مع القلب.

أيتها الدنيا؛ هذا تحقيرك الإلهي إذا أكبرك الإنسان!

ويا عجباً لأهل سوء المُغتريين بحياة لا بد أن تنتهي! فماذا يرتقبون إلا أن تنتهي؟ حياة عجيبة غامضة؛ وهل أعجبٌ وأغمضٌ من أن يكون انتهاء الإنسان إلى آخرها هو أول فكرة في حقيقتها؟

فعندما تحين الدقائقُ المعدودة التي لا ترقبها الساعةُ ولكن يرقبها صدرُ المُحتَضِر.. عند ما يكون مُلك الملوك جميعاً كالتراب لا يشتري شيئاً ألبتة..

ماذا يكون أيها المجرم بعدما تقتترف الجناية، ويقوم عليك الدليل، وترى حولك الجند والقضاة،  
وتقف أمامك الشريعة والعدل؟

أعمالنا في الحياة هي وحدها الحياة، لا أعمارنا، ولا حظوظنا. ولا قيمة للمال، أو الجاه، أو  
العافية، أو هي معاً - إذا سلب صاحبها الأمن والقرار! والأمين في الدنيا من لم تكن وراءه جريمة  
لا تزال تجري وراءه. والسعيد في الآخرة من لم تكن له جريمة تطارده وهو في السماوات.

كيف يمكن أن تخذع الآلة صاحبها وفيها (العداد) : ما تتحرك من حركة إلا أشعرته فعدّها؟ وكيف  
يمكن أن يكذب الإنسان ربّه وفيه القلب: ما يعمل من عمل إلا أشعره فعدّه؟

\* \* \*

ورأيت العروس قبل موتها بأيام

أفرايت أنت الغنى عندما يُدبر عن إنسان ليترك له الحسرة والذكرى الأليمة؟ أرايت الحقائق  
الجميلة تذهب عن أهلها فلا تترك لهم إلا الأحلام بها؟ ما أتعب الإنسان حين تتحول الحياة عن  
جسمه إلى الإقامة في فكره!

وما هي الهموم والأمراض؟ هي القبر يستبطن صاحبه أحياناً؛ فينفذ في بعض أيامه شيئاً من  
ترابه!...

رأيت العروس قبل موتها بأيام، فيالله من أسرار الموت ورهيبته! فرغ جسمها كما فرغت عندها  
الأشياء من معانيها! وتخلّى هذا الجسم عن مكانه للروح تظهر لأهلها وتقف بينهم وقفة الوداع!

وتحول الزمن إلى فكر المريضة؛ فلم تعد تعيش في نهار وليل، بل في فكر مضيء أو فكر مظلم!

يا إلهي! ما هذا الجسم المتهم المقبل على الآخرة؛ أهو تمثال بطل تعبيره أم تمثال بدأ تعبيره؟

لقد وثقت أنه الموت، فكان فكرها الإلهي هو الذي يتكلم؛ وكان وجهها كوجه العابد: عليه طيف  
الصلاة ونورها. والروح الإنسانية متى عبرت لا تعبر إلا بالوجه.



ولها ابتسامة غريبة الجمال؛ إذ هي ابتسامة آلام أيقنت أنها موشكة أن تنتهي! ابتسامة روح لها مثل فرح السجين قد رأى سجانَه واقفاً في يده الساعة يرقب الدقيقة والثانية ليقول له: انطلق!

\* \* \*

ودخلتُ أعودُها فرأت كَأني آتٍ من الدنيا...! وتنتمت مني هواء الحياة. كأني حديقة لا شخص!

ومن غير المريض المُدَنَّف، يعرف أن الدنيا كلمة ليس لها معنى أبداً إلا العافية؟ من غير المريض المُشفي على الموت، يعيش بقلوب الناس الذين حوله لا بقلبه؟

تلك حالة لا تنفع فيها الشمس ولا الهواء ولا الطبيعة الجميلة، ويقوم مقام جميعها للمريض أهلها وأحبأؤه!

وكان ذووها من رهبة القدر الداني كأنهم أسرى حرب أجلسوا تحت جدار يريد أن ينقض! وكانت قلوبهم من فزعها تنبض نبضاً مثل ضربات المعاول.

وباقتراب الحبيب المحتضر من المجهول، يصبح من يحبه في مجهول آخر، فتختلط عليه الحياة بالموت، ويعود في مثل حيرة المجنون حين يمسك بيده الظل المتحرك ليمنعه أن يذهب! وتعرّوه في ساعة واحدة كآبة عمر كامل، تهيبُّ له جلال الحس الذي يشهد به جلال الموت!

\* \* \*

وحانت ساعة ما لا يفهم، ساعة كل شيء، وهي ساعة اللاشيء في العقل الإنساني! فالتفتت العروس لأبيها تقول: "لا تحزن يا أبي..." ولأمها تقول: "لا تحزني يا أمي"!!!

وتبسمت للدموع كأنما تحاول أن تكلمها هي أيضاً؛ تقول لها: "لا تبكي...!" وأشفقت على أحيائها وهي تموت، فاستجمعت روحها ليقى وجهها حياً من أجلهم بضع دقائق! وقالت: "سأغاركم مبتسمة فعيشوا مبتسمين، سأترك تذكراً بينكم تذكاري عروس...!"

ثم ذكرت الله وذكرتهم به، وقالت: "أشهد أن لا إله إلا الله" وكررتها عشرًا! وتملأت روحها بالكلمة التي فيها نور السماوات والأرض، ونطقت من حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذي يجعل

النفس منيرة تتلألأ حتى وهي في أحزانها.

ثم استقبلت خالق الرحمة في الآباء والأمهات! وفي مثل إشارة وداع من مسافر انبعث به القطار،  
ألقت إليهم تحية من ابتسامتها وأسلمت الروح!

يالْعجائب القدر! مَشِيناً في جنازة العروس التي تُزَف إلى قبرها طاهرة كالطفلة ولم يبارك لها  
أحد! فما جاوزنا الدار إلا قليلاً حتى أبصرت على حائط في الطريق إعلاناً قديماً بالخط الكبير  
الذي يصيح للأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية (هذا هو اسمها: "مبروك". "...!

واخترقنا المدينة وأنا أنظر وأتقصى، فلم أرَ هذا الإعلان مرة أخرى! واخترقنا المدينة كلها، فلما  
انقطع العمران وأشرفنا على المقبرة، إذا آخر حائط عليه الإعلان: "مبروك". "...!



## الشعر العربي

### في خمسين سنة

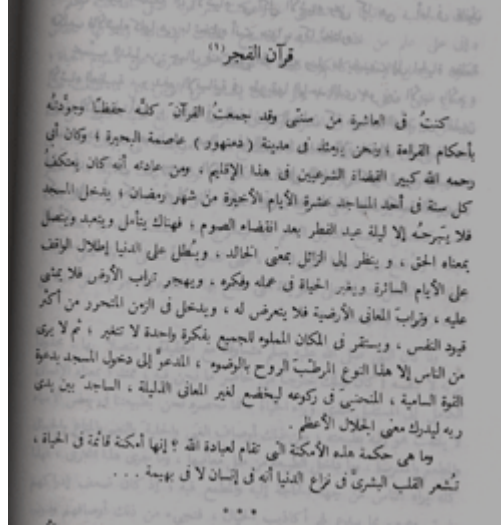
إذا اعتبرت الشعر العربي قبل خمسين سنة خلت (أي قبل إنشاء المقتطف) وتأملت حليته ومعرضه، ونظرت في مناهجه وطريقته، وتصفحت معانيه وأغراضه لم تر منه إلا شبيهاً بما تراه من بقايا الورق الأخضر في شجرة تظل عليها الظل فهو جامد مُستوخَم، ووحْم في ظلها شعاع الشمس فهو بارد يرتعد، فالحياة فيها ضعيفة متهاكلة، لا هي تموت كالموت ولا هي تحيا كالحياة، وما ثم إلا ماءً ناشف ورونق عليل ومنظر من الشجرة الواهنة كأنه جسم الربيع المعتل بدت عروقه وعظامه.....



إذا اعتبرت الخيال في الذكاء الإنساني وأوليته دقة النظر وحسن التمييز، لم تجده في الحقيقة إلا تقليداً من النفس للألوهية بوسائل عاجزة منقطعة، قادرة على التصور والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق.

وهذه النفس البشرية الآتية من المجهول في أول حياتها، والراجعة إليه آخر حياتها، والمسددة في طريقه مدة حياتها، لا يمكن أن يقرر في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجده، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي، فهي لا تتعاطى الموجود فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فرغ منه فيما يُبدأ، وتم فيما يُزاد، وخذ فلا يتحول، بل لا تزال تضرب ظنها وتُصرفِ وهمها في كل مرة تراه أو يتلجج في خاطرها، فلا تبرح تتلمح في كل وجود غيبا، وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه.

وتجري دأباً على مجازيها الخيالية التي توثق صلتها بالمجهول، من ثم فلا بد في أمرها مع الموجود مما لا وجود له، تتعلق به وتُسكن إليه، وعلى ذلك لا بد في كل شيء - مع المعاني التي لها الحق - من المعاني التي له في الخيال، وهذا موضوع الأدب والبيان في طبيعة النفس الإنسانية، فكلاهما طبيعي فيما ترى.....



## قرآن الفجر

كنت في العاشرة من سني وقد جمعت القرآن كله حفظاً ووجدته بأحكام القرامة، ونحن يابنك في مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة، وكان أبي رحمه الله كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم، ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان، ويدخل المسجد فلا يهرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم، فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطل على الدنيا إطلال الوافق على الأيام السائرة ويغير الحياة في عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض فلا يبقى عليه، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير، ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء، المدعو إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحني في ركوعه ليخضع لغير المعاني الدلية، المساجد بين يدي ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم.

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة، تُشعر القلب البشري في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة.....

## النجاح وكتاب سر النجاح (١)

ما خلق الله ذا عقل من بني آدم إلا أودع في تركيبه شئين كالمقدمة والنتيجة ، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة والغاية ، ليحيا من سيء عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ، فمن تركيب الإنسان قوة الرغبة في النجاح وأن يتأق إلى سره أو يبلغ منه أو يقاربه ، وفي هذا التركيب عينه ما يهتك به هذا الحجاب ويفضي منه إلى هذا السر ويجمع بك عليه . وما أنكر أن النجاح قدر من الأقدار ، ولكنه قدر ذو راحة قوية خاصة به يستروحها من تحت السماء وهو لا يزال في السماء وبينه وبين الأرض أمد ودهر وأسباب وأقدار كثيرة ، ولولا أن هذه الخاصية فيه وفي الإنسان منسه لما توفرت رغبة في عمل ولاصح نشاط في الرغبة ولا توجه عزم إلى النشاط ولا توثقت عقدة على العزم .

غير أن في الإنسان كذلك ما يفسد هذه الخاصية أو يضعفها أو يعطلها تعطيلاً ، فإذا هي تعطيل ولا تهدي وكانت تهدي ولا تضل ، وإذا هي زائلة عن الحق مطوية عن التصد وكانت هي السبيل إلى الحق وهي الدليل على التصد ، وما ينال منها شيء إلا واحد من ثلاث : العجز ، وضعف الهمة ، واضطراب الرأي .

فأما العجز فتزلة تجعل الإنسان كالثبات يرتفع عن الأرض بهوده ولكنه غائر فيها بأعويل حياته ، وأما ضعف الهمة فتزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجد كيفما وجد وحيثما جاء موضعه من الوجود ، إذ هو يولد ويكسح ويكدح ليكون لحمًا وعظمًا وصوتًا ووبرًا وشعرًا أثاثًا ومتاعًا ، وكأنه ضرب آخر من الثبات إلا أنه نوع آخر من المتعة .

وأما اضطراب الرأي فتزلة بين المترئين ترجع إلى هذه مرة وإلى هذه مرة وتقع من كليهما ميتعها ، والعجز وضعف الهمة واضطراب الرأي في لغة العقل معان ثلاثة لكلمة واحدة هي الخيبة ، وما أسرار النجاح إلا الثلاثة التي تقابلها وهي القوة والعزيمة والثبات .

(١) المظهر : مايو سنة ١٩٢٢ .

## النجاح وكتاب سر النجاح

ما خلق الله من بني آدم إلا أودع في تركيبه شئين كالمقدمة والنتيجة، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة والغاية ليحيا من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ففي تركيب الإنسان قوة الرغبة في النجاح وأن يتأق إلى سره أو يبلغ منه أو يقاربه، وفي هذا التركيب عينه ما يهتك به هذا الحجاب ويفضي منه إلى هذا السر ويجمع به عليه، وما أنكر أن النجاح قدر من الأقدار، ولكنه قدر ذو راحة قوية خاصة به يستروحها من تحت السماء وهو لا يزال في السماء وبينه وبين الأرض أمد ودهر وأسباب وأقدار كثيرة، ولولا أن هذه الخاصية فيه وفي الإنسان منه لما توفرت رغبة في عمل ولاصح نشاط في الرغبة ولا توجه عزم إلى النشاط ولا توثقت عقدة على العزم.....

فهرس الجزء الثالث من وحى القلم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٦٣	شيطان وشيطانة	٥	السوء الروحي الأعظم
١٧٠	نهضة الأقطار العربية	٢٨	قرآن الفجر
١٧٦	لا تنجى الصحافة على الأدب	٣٢	الفقة والدين والمعادن
١٨٤	صعاليك الصحافة	٤٥	الأسد
١٨٩ (٢)	» »	٥٢	أمراء للبع
١٩٤ (٣)	» »	٥٩	العجوزان
٢٠٠ (تنمة)	» »	٦٥ (٢)	» »
٢٠٦	أبوحنينة ولكن يعرفقه	٧١ (٣)	» »
٢١١	الأدب والأديب	٧٧ (تنمة)	» »
٢٢١	سرالتبوع في الأدب	٨٥	السطر الأخبير من التنمة
٢٣٥	نقد الشعر وفلسفته	٩٣	عاصفة القدر
٢٤٧	فيلسوف وفلاسفة	١٠٤	القلب المسكين
٢٥١	شيطانى وشيطان طاغور	١٠٩ (٢)	» »
٢٥٧	فلسفة القصة	١١٤ (٣)	» »
٢٧١	حافظ إبراهيم	١١٩ (٤)	» »
٢٨٦	كلمات عن حافظ	١٢٤ (٥)	» »
٢٩٥	شوق	١٢٩ (٦)	» »
٣١٣	بعد شوق	١٣٥ (٧)	» »
٣٣٢	صروف الغوى	١٤٠ (٨)	» »
٣٤٢	الشيخ الحضرى	١٤٨ (تنمة)	» »
٣٤٨	رأى جديد فى كتب الأدب التدبئة	١٥٤	انتصار الحب
		١٥٨	قبلة بالبارود لا بالماء المقطر

# أطفال الخليج



مركز دراسات وبحوث المعوقين  
[www.gulfkids.com](http://www.gulfkids.com)